مقدمة

يلاحظ فى أكثر الدراسات التاريخية المعاصرة أنها تعانى نقصا شديدا فى الربط بين حركة التاريخ المصرى وبين الأبنية الفكرية المعبرة عن هذه الحركة وتظهر خطورة هذه الظاهرة إذا ما أدركنا الأهمية البالغة لهذا الربط.. إذ بدونه لايمكن فهم حركة التاريخ أو التطور فهما كاملاً.

ومن هذا المنطلق تبدأ هذه الدراسة التى تستهدف الكشف عن الفكر الليبرالى فى الصحافة العربية فى مصر.. محاولين أن نربط خلالها بين حركة التاريخ المصرى فى فترة البحث وبين البناء الفكرى ككل لا يتجزأ خاصة وأن الصحافة المصرية تنفرد بأنها تعتبر أوفى المراجع التى تسجل آثار الفكر المصرى الحديث.

وهذا الكتاب هو الطبعة الثانية المنقحة من ثلاثة كتب تعرضت لهذا الموضوع الهام وهى «الصحافة وقضايا الفكر الحر فى مصر» وقد صدر فى عام ١٩٧٣ و «أزمة الفكر القومى فى الصحافة المصرية» الذى صدر فى عام ١٩٧٦، و«أزمة الديموقراطية فى الصحافة المصرية» وصدر فى عام ١٩٧٧، والكتب الثلاث تحوى مسحاً شاملاً للأفكار الليبرالية فى الصحافة المصرية منذ نشأة هذه الصحافة فى عام ١٨٢٨ وحتى عام ١٩٢٤م.

وكنت ومازلت أتمنى أن يتاح لى الوقت لاستكمال هذا العمل العلمى حتى يتمكن الباحثون من تحقيق الاستفادة الفعلية عند دراسة تلك الفترة التاريخية الحيوية فى الصحافة المصرية باعتبارها سجل لآثار الفكر المصرى بصفة عامة والفكر الليبرالى منه بصفة خاصة منذ بدايات القرن التاسع عشر وحتى قرب منتصف القرن العشرين.

ويتجدد هدفنا من هذه الدراسة تحقيق أمرين رئيسين:-

الأول: الكشف عن الدور البارز الذى لعبته الصحافة المصرية فى وضع الأساس الأيديولوجى للفكر الليبرالى فى مصر... والذى خاضت من أجله العديد من المعارك ضد الفكر المتخلف. وضد الحكم المطلق.. والسلطة الاستبدادية.. وحملت الصحف لواء الدعوة إلى الوطنية المصرية والحكم الديموقراطى والحياة النيابية وحرية الفكر والتعبير وسيادة القانون وحرية المرأة.. وغير ذلك من الأفكار التى ساهمت فى صياغة العقل المصرى فى العصر الحديث.

الثانى: أن نضع أيدينا على كثير من الآثار الفكرية المهمة لعدد من كبار المفكرين والكتاب والصحفيين المصريين التى لم يسبق كشفها من قبل وبالتالى لم يسبق تناولها بالتحليل أو الدراسة.. وهذا من شأنه أن يلقى أضواء جديدة على اتجاهات ومواقف هؤلاء الكتاب تجاه بعض القضايا المهمة التى شغلت العقل المصرى فى فترة البحث.

وكمحاولة لوضع صياغة علمية للدراسة تساعد على الوفاء بأهدافها حاولنا اختبار صحة فرض يقول بأن الفكر الليبرالى فى مصر لم يظهر بفعل حركة الترجمة أو البعثات إلى أوروبا فقط.. وإنما كان بالدرجة الأولى نتيجة للتحولات التى حدثت فى بنية المجتمع المصرى والتغيير الذى أصاب تركيبه الاجتماعى والاقتصادى.. وحركة القوى الاجتماعية.

ويهمنا أن نؤكد أن نوعية الظاهرة الليبرالية فى مصر تتطلب منا مرونة فى استخدام المصطلح.. فعندما نبحث فى هذه الظاهرة المصرية فى إطار تعريف ضيق ينطلق من الفرضيات الأساسية للفكر الليبرالى الأوروبى فسنجد أنفسنا محصورين فى إطار ضيق.. ولكن عندما تنفتح آفاق الدراسة بحيث تستوعب كل الجهود الفكرية التى ساهمت فى الدفاع عن الحريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للإنسان المصرى فسوف نجد تراثا ضخما للفكر الليبرالى فى الصحافة المصرية.

ولقد كان المصدر الأساسى لهذه الدراسة مجموعات الصحف العربية الصادرة فى مصر وإلى جانب هذا المصدر الأصيل استعنا بالمراجع العربية والمصرية والأجنبية التى تناولت موضوع البحث عن قرب أو عن بعد - ولقد كانت أداتنا فى البحث تعتمد على كل من المنهجين التاريخى والمقارن.

فاروق أبو زيد